العيد الحزين*

عجباً لقد أصبحتْ كلمةُ العيد عندي تنبش عن الأحزان التي يكنّها فؤادي، أصبح العيد مسرحاً مأساويّاً، وأمتي رواية حزينة، وأشباح الألم والحسرة شخوصٌ تظهر على ذلك المسرح لتؤدي أدوار هذه المسرحية، فعفواً أيها الملك، وعفواً أيها الحضور، إذا عزفت لكم على وترٍ حزين.

عيدُ، ما هذه الخُطا العَجِلاتُ؟
كيف تُطوَى أمامَك السنواتُ؟

عيد، هل جئتَ بالجديد المهنّا؟
أم أُعيدتْ بعَوْدِكَ الحسرات؟

عدتَ يا عيدُ، والجراحُ جراحٌ
لم تُحَقَّقْ لأمتي الأمنيات

* ألقيت في الحفل السنوي الذي أقيم في منى في الحج لعام ١٣٩٧ هـ، والذي أقامه الملك خالد بن عبدالعزيز آل سعود، ١٠ / ١٢ / ١٣٩٧ هـ.

عيد، يا مسعدي وقد كنت طفلاً
فيك ألهو، وتنتشي البسمات

كنتُ يا عيد حين تأتي أغني
حيث تحلو في فجرك الأُغنيات

كيف أصبحت، حين جاوز عمري؟
مسرحاً تنتشي بك الذكرياتُ

ذكرياتٌ على شواطئ قلبي
قد رستْ سفنها وفيها عظات

أنا فيها رأيت مكة حَيْرَى
وعليها من الأسى ظلمات

ثم شاهدتها وللحقِّ نورٌ
في رباها، وللهدى وثبات

جرَّ فيها الزمانُ أثوابَ مجد
نسجُها العزم يرتديه الأُباة

ويسيرون فوق أرض المعالي
ولهم روعةٌ وفيهم ثبات

وإذا ما انبرى ضلالٌ لحق
بقيَ الحقُّ وانتهى الإعنات

ذكرياتٌ تظل تزحف في
ذهني فتهتزُّ عندها الخلجات

أنا فيها أرى الليالي اندهاشاً
وتراتيلُ ديننا مِشْكَاةُ

ولجبريل هيبة يقرأ الوحيَ
وطه تهزُّه الكلمات

قـــــرأ الوحي، يا أجلَّ كـــــلام!
والروابي مِنْ حـــوله إنصـــات

لم يكن يائســـــاً، وكـــيف ينا
ل اليـأسُ قلباً تصـونه الدعـواتُ؟

ها هنا يُدْفَنُ الضَّـــلالُ وتبـــدو
صـفـحـةٌ تنطوي لهـا الصـفـحـات

ذكـــــريات وكم تمر الليـــــالي
واشـتـيـاقي تثـيـره الذكـريات

أنا فـيـهـا أرى سـراقـة مـذعـوراً
وخـــيـــر الأنام فـــيـــه أناة

خـفِّف الوطءَ يا ســراقــة، هذا
ســيِّــدٌ، لا ينال منه البُــغَــاة

كيفما سرتَ تبتغيه لتحظى

بالعطايا، فالسير منك فوات

خفِّف الوطءَ يا سراقة واسمع

رنَّة الوعد، ردَّدته الجهات

خذ سوارَيْ كسرى ولا تخش لوماً

ذاك وعد، وهل يخون الثقات؟

أيُّ وعد؟ أهاربٌ من قريش

يتخفَّى، وعودُه صادقاتُ؟

لا تقل ذاك يا سراقة هذا

من أشادت بصدقه الآيات

فانتظر أيُّها الفتى دورة الأيـ

ـام يُزري بشكِّك الإثبات

ذاك كسرى في زائف المجد لكنْ
مجدُ طه تقوده العزماتُ

وإذا ما التقى بزائف كسرى
صدقُ طه، تجلَّت المكرُمَات

عندها فامتلك سواريه شهماً
وتذكَّر كم ضلَّلتك «اللاّت»

يتعب الشعر في مطاردة المجـ
ـد وراءَ الأزمان، أين الشُّداة؟

يا بني أمتي بغير نضالٍ
لن ننال العلا، فبئس الحياة

بئس إنْ ماتت الكرامة فينا
بئس إنْ طوّحت بنا التَّبِعات

يظهر الفارس الشجاعُ شجاعاً
حين تجثو في دربه الأزَمات

قد تضيق الألفاظ عن حمل قصدي
رُبَّ صوتٍ تخونه النّبرات

هو شعرٌ، فإن فقدنا التآخي
فبماذا تفيدنا الأبيات؟

واجبٌ أنْ أذيب في الحقِّ صَفوي
في حياة يدبُّ فيها الممات

خُلِقَ الشعر ناصحاً فحريٌّ
أن تفيق القصائد النّاصحات

يا ابنَ عبدالعزيز قد يبعث
الشعر جراحي، فتكثر الآهاتُ

لا تلُمْني، فـذاك فَـيْضُ شـعـري
ومن الشـعـر للشـعـور أداة

إنَّ في صـورة اجـتـمـاعك هذا
صـورةَ الحـشـر تُفـتحُ الصـفـحات

هنا هنا فـرحـةٌ وسـاعـات أُنْس
ونشـيـدٌ يُثني عليـه الرُّواة

وهناك السـؤالُ، مـاذا عـملتم
وعلـينـا من ذاتـنـا إثـبـات

كلُّ أعـضـائنا شـهـودٌ علينا
ويموت الإلحـاد والأُبَّهـات

فـاتصلْ يا أبي بمن يملك الملـ
ـك، ومَنْ منه تُرتجى الحـسنات

نصـــــرُه عـــــزّةٌ لمن آثر الحقَّ

وفي جنبـــــه الكريم النَّجـــــاة

يا ابن عبدالعزيز تصفو المعاني

حين تغلي في شعـــري الكلمـــات

كُنْ مع الله فـــالحـــيـــاة نضـــالُ

ربَّ صـــوتٍ تجـــيـــبـــه أصـــوات

وإذا مـــا أفـــاق « دجلةُ» يومـــاً

فـــبـــعـــيـــد ألاّ يفـــيقَ «الفـــرات»

أنت أدرى، فـقـد تحـمَّلْتَ عـبـئـاً

والمعـالي، في دربهـا صـدمـاتُ

ليس يُنْجِـيك من نتـائج هذا العـ

ـبء إلا الإيمانُ والإخـــبـــات

فـــاجـــعل الشـــرع رائداً تجـــدِ
الله مـــعـــيناً، وعَـــوْنُ ربي ثبـــات

قـــــوَّةُ الـلـه فـي مـــــداهـا
تتـــهـــاوى الأعـــداد والقـــوّات

* * *

يارفـاقي وفي ضـمـيـر القـوافي
حـســراتٌ، وخـاطري حـســرات

فـاعـذروني، إذا أفـاقت شـجـوني
يومَ عـيـدي، وسـالت العـبـرات

هو عـيـــدٌ، لكنّ حـــملتُ فـؤاداً
فـيـــه من غـيـــرة الأبيِّ سـمـات

كيف يشـدو، وإنّ أتى العـيـدُ يزهو
بالأمـــاني، وبالرضى يقـــتـــات؟

كيف يشدو، ولليتامى الحيارى
تحت ظلم من العِـــــدا أنّات؟

كيف يشدو، ومسجدُ القدس يشكو
وبلادي أعـــــيـــــادها وَيْلات

ليس يأساً من رحـمـة الله لكن
لوعـة تستـــدرُّها الهَـفَـواتُ

عـجـبـاً كلّمـا رأيت رفـاقي
يتـــــغنَّون، هاجتِ الخطرات

فـتـذكَّـرْتُ في فلسطين ثَكْلَى
تمضغ البؤسَ، والأعادي قُساة

نحن نشدو وهم يقيمون ملكاً
في بلادي، وملكهم عـــثـــرات

كـــيف يبنون في بلاديَ ظلمـــاً
ومن الظلم تقـــشـــعـــرُّ الرفـــات

مـلَّ منـهـم ثـرى بـلادي وملَّـت
من رزايا مـــا يصنعـــون الحـيـــاة

وإذا باشـــر المصـــيـــبـــةَ وغـــدٌ
فـســتـبـدي أسـرارَه البـصـمـاتُ

شـطـحـــــاتٌ لا بـأس، لكـنْ أليـمٌ
يا بـلادي أنْ تكثـــرَ الشطحـــات

وإذا خـــادع الفـــتى فـــســـواءٌ
يا رفـــاقي، حـــيـــاتُه، والممـــات

عـيـدُ، إنْ كنت تستطيع فـبـعـداً
كـــيف تأتي وأمـــتي أشـــتـــات

كيف تأتي؟ يا عيدُ تطلب شدْواً
وبلادي يَعِيْثُ فيها الطغاةُ

لستُ بالرّاهب الذي يكره الشَّدْوَ،
ولكنْ لفرحتي ميقات

أيها العيد لست عيدي فمهلاً
إن عيدي أن تُرفَعَ الرايات

obeikandl.com